

القلب المنحرف في القرآن



(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تَأْتُونََنِي وَتَقُولُونَ إِنَّا نُرْسِلُ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) (الصف/ 5).

تدلنا الآية الشريفة إلى أن اليهود لما عندهم من العناد واللجاجة قد آذوا نبيهم موسى كليم الله حتى آل الأمر بهم إلى انحراف قلوبهم وزيفها، وهذا شأن كل من يؤذي النبي، وبهذا أراد الله ينهي المؤمنين أن لا يؤذوا نبيهم الأكرم محمد (ص) كما ورد ذلك في قوله تعالى:

(إِنَّ السَّادِّينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ) (الأحزاب/ 57).

وكما في قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا) (الأحزاب/ 69).

فنهى الله المؤمنين أن لا يؤذوا النبي لا بقولهم ولا بعملهم، فإنهم يؤذي ذلك إلى انحراف قلوبهم وزيفها عن الاستقامة والصراف المستقيم، ومن ثم يميلوا من الحق إلى الباطل، ولمّا زاع القلب فإن مثل هذا القلب يحرم من الرحمة الإلهية، ولا يصيب الهداية الربانية فأزاع الله قلوبهم نتيجة أعمالهم من الإيذاء والفسق والفجور، فجزاء فسقهم أزاع الله قلوبهم، ولعنهم في الدنيا والآخرة، وحرّمهم من شمول رحمته ولطفه وهدايته، فإنّما أضلّهم الله بفعلهم وانحرافهم:

(يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ) (البقرة/ 26).

فإنَّ لا يضلُّ أحدًا ابتداءً، فإنَّ ذلك قبيحٌ و[] منزّهٌ عن القبائح، إنَّما ضلالٌ لمن ارتكب الفسوق والذنوب بسوء اختياره، فزاع عن طريق الحقِّ وخرج ومال إلى طريق الباطل، فأضلهُ [] وأخزاه في الدنيا، وله في الآخرة عذاب عظيم.

وهناك علائم أُخرى لمن زاع قلبه كما في قوله تعالى:

(فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ) (آل عمران/ 7).

فإنَّ كتابَ [] الكريم لحكمة ربّانية فيه الآيات المحكمة والآيات المتشابهة، فالمؤمن إنَّما يسأل أهل الذكر في ما لا يعلم، ويرجع إلى الراسخين في العلم، ويأخذ بالمحكمات، ويرجع إليها الآيات المتشابهات، ويعتقد أنَّ الكلَّ من عند []، أمَّا من له قلب زائغ ومنحرف، فإنَّه يبتغي الفتنة وإشعال نار الحرب والشقاق بين المؤمنين، فيتبع ما تشابه من الآيات الكريمة ويؤوِّلها من أجل مصالحه الشخصية وابتغاء الفتنة، وإنَّما يفعل ذلك لأنَّه لم يطمئنَّ قلبه، ولم يرسخ في العلم، ولم يثبت على العمل الصالح.

وأمَّا مَنْ آمَنَ واطمأنَّ قلبه، وكان من الراسخين في العلم النافع والعمل الصالح، وهده []، فإنَّه يدعو ربّه:

(رَبِّ إِنَّا لَا تَزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ) (آل عمران/ 8).

فمن يتبع المتشابه في العمل بأن لا يرجعه إلى المحكم، فإنَّ [] قد ذمَّ ذلك، وأمَّا من أرجع المتشابه إلى المحكم، فإنَّه يكون من المحكم، ولا يعلم تأويله إلا الراسخون في العلم، فيدعون [] بأن لا تزاع قلوبهم، فإنَّهم علموا أنَّ القلب إثر الغفلة ربما ينحرف عن الصواب والحقِّ، وإنَّما يملك الضرُّ والنفع هو [] سبحانه وتعالى، وإليه تصير الأمور، فيخافون أنَّهُ بعد رسوخهم في العلم ربما تنحرف قلوبهم وتزيغ عن الحقِّ.

فمن عوامل انحراف القلب وزيفه إيذاء النبيِّ كيف ما كان وبأي نحو قولاً وعملاً في حياته وبعد مماته، فيه وفي أهل بيته كما قال النبيُّ الأكرم في حقِّ فاطمة الزهراء سيِّدة النساء (عليها السلام): "فاطمة بضعةٌ منِّي من آذاها فقد آذاني"، (رواه الفريقان). ثمَّ مَنْ انحرف في الظاهر فقد انحرف في الباطن، ومَنْ زاع قلبه، فإنَّه يعيش القلق والاضطراب، فيحرِّف الكلم عن مواضعها، ويؤوِّل الآيات المتشابهات كيف ما شاء. وأمَّا من رسخ في العلم والإيمان فإنَّهم يدعون ربَّهم:

(رَبِّ إِنَّا لَا تَزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ).

المصدر: كتاب حقيقة القلوب في القرآن